تواصل (المدى) نشر هذا الكتاب الذي يقدم صورة عن ذكريات وانطباعات وآراء بول بريمر حول فترة عمله في العراق وتهدف (المدى) عبر ترجمتها ونشرها الكتاب إلى إتاحة الفرصة لقرائها للاطلاع ، كما تتيح المجال للباحثين والمحللين وسواهم من المعنيين لمراجعة مادة الكتاب فكرياً ونقدياً.. وبهذا تؤكد (المدى) ان جميع الآراء والمعلومات التي يقدمها بريمر هنا هي تعبير عن وجهة نظره الشخصية التي لا تلتقي مع وجهة نظر (المدى) التي واكبت فترة حكم بريمر وما بعدها بالنقد الصريح المعروف عن الجريدة وعن سياستها الواضحة في هذا المجال.

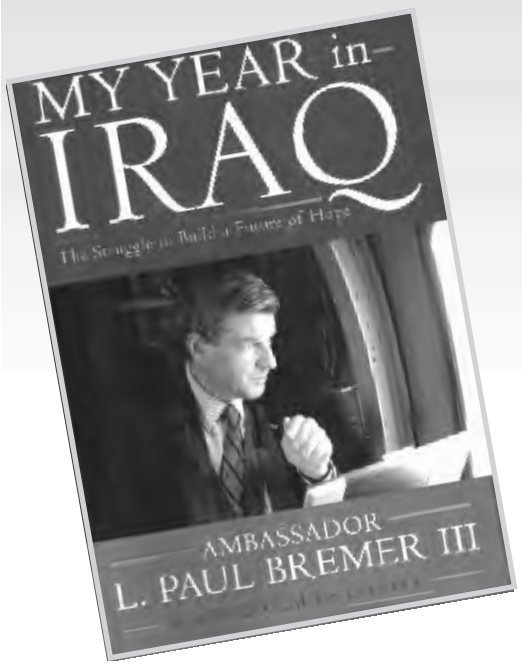

كتاب بول بريمر الصادر حديثاً حول تجربة عمله في العراق

سنتي في العراق

الصراع لبناء مستقبل من أمل

تأليف/ بول بريمر
ترجمة /د. عابد اسماعيل

(الحلقة التاسعة عشرة)

الفصل الرابع

كان مجلس الأمن الدولي قد صوّتَ في ٢٢ أيار لرفع العقوبات عن العراق، والتي كانت مفروضة على نظام صدام منذ عام ١٩٩٠، وقد دعا القرار رقم ١٤٨٣ قوات التحالف للعمل مع الممثلِ الخاص للأمين العام للأمم المتحدة "لتسهيل عملية تؤدي إلى تشكيل حكومة عراقية ممثلة، معترفٍ بها دولياً،" والتي أطلق عليها القرار اسم "الإدارة العراقية الانتقالية،" (IIA).

" هذا القرار يخلق فسحةً للتذبذب،" قلتُ لسكوت ورايان في إحدى الظهيرات الحارّة. "سيكون للعراقيين سلطتان، وكتفان يبكون عليهما، واحدة للمبعوث الخاص للأمم المتحدة، وأخرى لي."

"هذا سيجعل الحياة أكثر متعةً،" قال رايان.

إن وجود ممثل خاص للأمم المتحدة في بغداد سوف يعقّد من مهمة تشكيل إدارة انتقالية. كما أنّ احتمالات خلق مواجهة، من قبل بعض العراقيين، بين الأمم المتحدة والتحالف يصبح مدعاة للقلق.

هكذا بدأنا نعيد النظر بخطتنا الاستراتيجية. وقرّرنا أن نمتحنها في إبراهيم الجعفري، الزعيم الشيعي لحزب الدعوة الإسلامي. ورحنا نطلبُ في إثره، في مدينة الحجّ، كربلاء.

وفيما كنا في طريقنا، من بغداد، تتقدّمنا سيارات الهامفي المدرعة، نمرّ بقرى زراعية مسطّحة، بنية اللون، رحنا نناقش خطتنا المطروحة.

"إنّ المفتاح هو التحرّك بسرعة،" قلتُ، ملخصاً نقاشنا.

شعرتُ بأنه يجب أن نضع الإدارة الانتقالية في مكانها بسرعة، لنظهر للعراقيين أن التحالف جاد بشأن الإصلاحات السياسية، وبشأن إعطائهم مسؤوليات مبكرة في حكم أنفسهم. غير أنّ الإدارة الانتقالية العراقية يجب أن تكون ممثلة لكل العراقيين. كنت قد أعلمتُ مجموعة السبع ("المنفيين") بأنهم لا يلبون جميع الشروط. فالعراقيون يحتاجون إلى تمثيل أوسع. وكذلك الرئيس. وهذا ما كان يسعى إليه قرار الأمم المتحدة.

لكنني كنت أريد لتحالفنا، وليس للأمم المتحدة- ببرامجها السياسية المتخبّطة- أن تلعب دور القيادة في دفع هذه العملية نحو الأمام.

إذا كان بإمكاننا أن نمارس ضغطاً على مجموعة السبع، من أجل توسيع دائرة تمثيلها بحيث تصبح مجموعة من ثلاثين شخصاً، وبأسرع وقت ممكن، يمكن للتحالف عندئذ أن يسمّي هذا الكيان الموسّع "إدارة انتقالية"، وبالتالي يمنحها فوراً صلاحيات وزارية.

"ولكن،" قلتُ، ونحن نتابع وجهتَنا داخل سياراتنا، "علينا أن نطوّر خطة جيدة على المدى البعيد." سوف يستغرق هذا وقتاً.

كما هو الحال في القطاع الاقتصادي، ألحق سوء الحكم البعثي ضرراً بالغاً بالبنية السياسية العراقية. وهذه لا يمكن إصلاحها بين عشية وضحاها. إن ثلاثين عاماً من الطغيان شوّهت بشكل كبير الإدارات المدنية، ونظام القضاء، وكلّ وهمٍ بحكومة ممثلة. كانت الانتخاباتُ وحكم القانون مجرّد تمثيلية تنكّرية قاسية.

كان العراق يحتاج إلى دستور يكتبه العراقيون، يحل محل ميثاق حزب البعث. وكنتُ أومن أن دستوراً حديثاً هو ضروريٌ لتحديد الأطر ورسم الحدود للفعالية السياسية. لا يمكن لأية وثيقة سياسية، بمفردها، أن تحدد مستقبل العراق. غير أن دستوراً جيداً يمكن أن يساعد في صياغة الحياة السياسية للبلاد. وسوف يوفر آلية رقابة ومحاسبة في النظام السياسي الجديد. إن تحديد الحقوق والواجبات الأساسية، في القانون، للمواطنين جميعاً، وتحديد شكل العلاقة بين مناطق العراق ومجموعاته البشرية، يمكن أن يساعد، بشكل كبير، على خلق أمة مستقرة.

جميع العراقيين الذين استشرناهم وافقوا على أن دستوراً جديداً هو بمثابة أمر حيوي. كان معظمهم يشير إلى دستور البلاد الأصلي، الذي يعود إلى سنة ١٩٢٥، والذي كان قد وضعه البريطانيون. عندئذ، قام بكتابة الوثيقة مجموعة مختارة من حوالي مئة رجل- معظمهم من السنة- وتمّ إقراره، بعد إجراء استفتاء عام. غير أن تكرار هذه العملية الآن، بطريقة تحترم التمثيل، يعني مشاركة طيف واسع من العراقيين الأكفاء. وكنا نأمل بأن هذه العملية سوف تشجّع النقاشات والحوارات الموسّعة بين جميع أطياف الشعب العراقي. وكانت مهمتهم كتابة مسودة الدستور، التي يجب أن يوافق عليها الشعب العراقي، من خلال الاقتراع العام. ستكون هذه العملية معقدة، وتستغرق وقتاً طويلاً. غير أن النتيجة ستكون منتجاً عراقياً. قلتُ لزملائي بأن الديموقراطية العراقية ستكون، بلا شك، مختلفة عن الديموقراطية الأمريكية أو البريطانية. ولكن بما أنّ العراقيين يحتاجون إلى وقت لا بأس به لكي يرسوا دعائم نظامهم السياسي، فإنّ عملية كتابة مسودة الدستور والموافقة عليها ستكون المكوّن "البطيء" لاستراتيجيتنا.

"أظنّ أننا سنسمّي هذه باستراتيجية البطيء -السريع،" قلتُ لرايان وسكوت ما إن بدأت قافلتنا تقترب من أطراف مدينة كربلاء. من جهة، نسرعُ بتشكيل حكومة، ومن جهة أخرى، نعطي الوقت الكافي لكتابة الدستور.

قابلنا الدكتور الجعفري في مكتب ضيق في كربلاء، بالقرب من مقامٍ مطرّز بالذهب، للإمام الحسين بن علي، أعظم شهداء الإسلام الشيعي. والجعفري، طبيب، مشدود البنية، في منتصف الخمسينيات من عمره، أمضى سنوات طويلة في إنكلترا. يتكلّم بسرعة، ويؤكّد على كلّ نقطة يطرحها بحركات دقيقة من يديه.

"يؤمن البعثيون بأن بإمكانهم استعادة السلطة،" قال الجعفري، مكرراً التحذير الذي سبق وأبداه خلال تلك الجلسة المشحونة عاطفياً مع مجموعة السبع (G7)، خلال أسبوعي الأول في بغداد. "يجب إيقافهم."

لا بدّ أنه يملك معلومات دقيقة، قلتُ في نفسي. ومثلما قلتُ للرئيس بوش في قطر، يملك جهاز المخابرات المركزي تقاريرٍ جديرة بالتصديق عن مسلمين وهابيين متطرفين، من المملكة العربية السعودية، كانوا يتسلّلون إلى العراق، ويقيمون صلات بالبعثيين السابقين، في الجوامع على الأغلب. هؤلاء الأصوليون الوهابيون يعتبرون جميع الشيعة "مرتدين"، ويعتبرون قوات التحالف، غير المسلمة، في العراق، منتهكة للمقدّسات. وتدلّ المؤشرات على أن هؤلاء المتطرفين يحاولون أن يجدوا أرضية مشتركة مع فلول البعثيين، العلمانيين، وهذا بمثابة "تحالف غير مقدس،" ضدّ أعدائهم المشتركين. وأعرف من خلال عملي في مكافحة الإرهاب بأن المتطرفين الوهابيين يملكون نفوذاً عظيماً لدى منظمة القاعدة.

مستعيداً ذكرى أكوام العظام في الحلّة، أعدتُ طمأنة الجعفري: "لن يسمح التحالف أبداً للبعثيين باستعادة السيطرة على هذه البلاد."

وبعد احتساء رشفة من الشاي الساخن، شرحتُ معالم العملية السياسية، السريعة-البطيئة، التي ستبدأ الآن، خاصة وأنّ قرار الأمم المتحدة قد صدر.

كان الجعفري قلقاً. فحزبه، حزب الدعوة الإسلامي، كان قد عانى كثيراً أثناء حكم صدّام، (...). الآن، وبعد عودته من المنفى في إيران، راح الجعفري يعزّز قاعدة نفوذه. بدا وكأنّه يفضل ستراتيجية بطيئة- بطيئة".

"سعادة السفير، بريمر،" قالَ، مستعيناً بمترجمه، "أنت تتحدّث عن أيام وأسابيع لاتخاذ قرارات سوف تؤثر على شعبنا، لمدة عقود وقرون. علينا أن نتحرّك بحذر."

الجعفري رجل مثقف، حصل على درجة في الطب، من الموصل، المدينة المتعددة الإثنيات، الواقعة في شمال البلاد. كنتُ أتعامل مع سياسي محنّك. وبالرغم من أن اسم حزبه يمكن ترجمته إلى "دعوة إسلامية"، لم يكن الجعفري من المتعصبين دينياً.

بعد الثورة الإسلامية في إيران، في عام ١٩٧٩، كثيرون في الغرب مالوا إلى الاعتقاد بأن الشيعة أناس بدائيون، متعصبون دينياً. وكانت الصور المتكرّرة لحجيج يلطمون ويجلدون أنفسهم، وهم يطوفون حول المقام المجاور للشهيد علي، فيما الدم يبلّل قمصانهم، قد عزّزت هذه القناعة الخاطئة. إذ ربما يوجد شيعة علمانيون بقدر ما يوجد شيعة عراقيون متدينون. ويملك إبراهيم الجعفري عناصر من كلا الجهتين. كنت أخاطب جانبه العلماني.

"دكتور جعفري،" قلتُ، "استناداً إلى قرار الأمم المتحدة، فإن التحالف يخطط لتشكيل إدارة انتقالية بأقصى سرعة ممكنة. نحن نأمل أن يتعاون قادة مسؤولون من المجتمع الشيعي مع هذا الجهد. من المؤكد أنها ستكون كارثة إذا كرّر الشيعة الخطأ نفسه الذي ارتكبوه في عام ١٩٢٠"

أومأ برأسه، موافقاً على إشارتي. بعد الحرب العالمية الأولى، حين دخلت القوات البريطانية إلى الأقاليم السابقة للإمبراطورية العثمانية المتهاوية، في بلاد الرافدين، التزم الشيعة العراقيون بالفتوى التي أصدرتها مراجعهم الدينية برفض التعاون مع "الصليبيين". وقد همّش هذا القرار، أكثر فأكثر، دور الشيعة في حكم بلادهم. الآن، وبعد مرور ثمانين عاماً، يمنحهم التحريرُ فرصةً جديدة.

بالمقابل، تعاون السنة العرب العراقيون، الذين تمتعوا بقرون من المعاملة الخاصة في ظل الحكّام الأتراك للإمبراطورية العثمانية، مع الاحتلال البريطاني، حيث احتفظوا بحظوة خاصة، أولاً في ظل الملكية التي زرعها الإنكليز، وتالياً في ظل نظام البعث.

مال الجعفري إلى التأمّل. لقد رميتُ القفازات، باعثاً برسالة مفادها أن القطار سوف يغادر المحطة، وعلى السياسيين الشيعة أن يصعدوا إلى متنه.

يتبع

رقصة سياسية
بغداد - صيف ٢٠٠٣

فيما كان خبراؤنا يسعون ، جاهدين ، إلى تطوير خطط لإصلاح الاقتصاد العراقي ، كان فريق آخر من سلطة التحالف المؤقتة يعمل للبدء بعمليّة الإصلاح السياسي.